مطران القدس

أ.د. سعيد أبو علي

أستاذ القانون العام والعلوم السياسية في جامعة القدس – المشرف العام ورئيس تحرير مجلة المقدسية

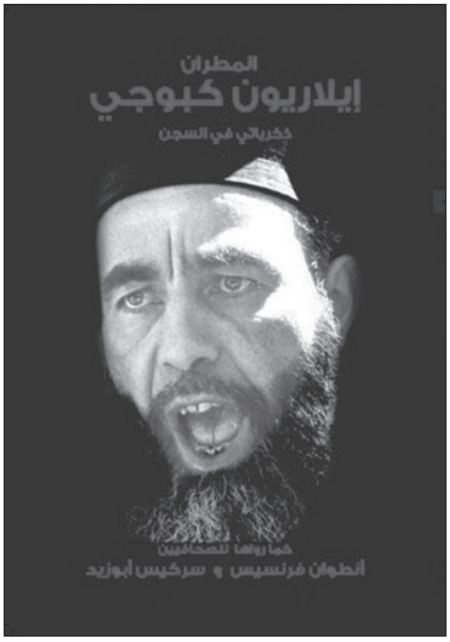

تقديـرًا وعرفانًـا ووفـاءً، تتـشرف المقدسـية بتنـاول كتـاب الزميلـين، أنطوان فرانسـيس، وسركيـس أبـو زيـد «المطـران الثائـر»، بهـذا العنـوان والمضمون، كشـمعة تضيء في سـيرة ومسـيرة راحـل كبـير يأبـى الغيـاب واسـمه كبوجي أو مطران القدس.

تجـرأا اليوم على البوح بما هو غير مباح، ليشـهرا فينا سيرة المطران، ذكرياته ومذكرات كفاحه على طريـق الفـادي والفدائي الفلسـطيني الأول... سركيس وفرانسـيس فارسـا كلمة، باحثان عن حقيقـة، وإلى حقّ اسـمه فلسـطين، فشـكرًا لهما ولكل المحتفين بمطران المحبة والفداء...

شـكرًا لمن يحفظ أمانة المطران أربعين عامًا وعامًا على رحيله، يبلغ رسـالته، ويوجه له تحية، طالمـا اسـتحقّها بجدارة واحـترام.. تحية لرمز معـاصر من رموز الدور المسـيحي المشرقي،

العربي في الفكر والمقاومة، في خدمة الدين والإنسان والأوطان..

في كتاب «مطران القدس» سيرة فدائي، يمارس عقيدته بإيمان عميق، أعيد بهذه الأوراق للصحافة رؤية حروفها وسماع إيقاعها من المشهد والصدى.

الورقة الأولى: عشق المطران

كبوجي، ذلك الطفل اليتيم الفقير المتمرد يختار طريقه، طفلًا يعيش حياة الرهبنة، عبادة الرب وخدمة الناس ويقرر. ويقول: الحصاد على بيدر الرب كثير والفعلة قليلون، وأنا بطبعي أحب خدمة الناس، وفي مساعدتهم متعة وغبطة... وهكذا يكون جورج كبوجي عندما غادر حلب، مدينة مولده، إلى دير الشير قرب عاليه لبنان، بعمر العاشرة، مدينة أولى حروف كهنوته، لعشرٍ أخرى، ثم إلى القدس مدينة عشقه الأول وعلومه العليا باللاهوت، وترسيمه كاهنًا، مدينة اسمه الجديد: إيلاريون كبوجي ودوره الجديد في عشق فلسطين بوجدٍ صوفيّ، فهي وطنه وراحته المقدسة.. ويشاء قدره، أن يتزامن وجوده في أحضانها ووجودها في وجدانه، مع تطور الهجمة الاستعمارية التي تهددها، بإقامة وطن قومي لليهود على ترابها، بغطاء الأساطير وفواجع الإرهاب الصهيوني المرير، لتكون إطلالته الأولى، خارج الدير في المدينة، على مشهد تفجير عصابات الآرغون فندق الملك داود. وكان السؤال في داخله: ولكنهم نسفوا بلادي فكيف يكون الإنسان حياديًا عندما يصبح وطنه في خطر؟ ومن هناك بتجربة مأساة النكبة، كان له دور متنامٍ ووعي بالمسؤولية يتعمق، ومن فشل التجارب العربية الرسمية العديدة وسقوط بقية ما تبقّى من فلسطين سنة 67، سقوط القدس مدينة صلاته وعشقه، بالمشهد الدموي الصادم، يستبد به العشق والفجيعة ويصرخ قائلًا: قدرة عظيمة جلبتني إلى المدينة المقدسة لأكون شاهدًا على جراحها النازفة، فكانت الصدمة وكانت نقطة التحول: بعد جهود مضنية، سمح جيش الاحتلال لنا بالخروج من منع التجول، لتفقد المدينة المنكوبة، فكانت جثث الشهداء تملأ الشوارع. وعلى مدار أربعة أيام، قمت والرهبان والراهبات، بجمع جثث أربعمائة شهيد، نودعها حفرًا استحدثناها بأماكن مختلفة، وصلّيت مع أحد الشيوخ على جثامين الشهداء، ثم انصرفت إلى العمل الاجتماعي الوطني، لتعزيز البقاء والمقاومة وتحدي انتهاكات الاحتلال لحرماتنا وسخريته من شعائرنا وطقوسنا، مدافعًا بعصاي عن كرامتي، حين بصق عليّ أحد جنود الاحتلال، لارتدائي ثيابي الكهنوتية: احتلوا الأرض، قتلوا الشباب والشيوخ والأطفال، لكنهم لم يتمكنوا من روح المقاومة فينا، انضممت لفتح مساهمًا في تأسيس المقاومة في الأرض المحتلة وتعزيزها، بما فيها نقل السلاح من بيروت إلى القدس، إلى أن كانت الواقعة، واكتشاف

السلاح ودخولي السجن الذي كنت أراه، وأرى نفسي أسيرُ إليه يومًا بعد يوم، لقد دخلت السجن عن سابق تصور وتصميم... تلك هي قصة الكتاب، بل الصورة الأصغر في سيرة ثائر طويلة تحتشد فيها الصور الكبيرة.

الورقة الثانية: قومية المطران أسقف القدس

في 1965 توج أسقفًا لمدينة القدس عن طائفة الروم الكاثوليك، لم يكن فيلسوفًا، كان رجل منطق، بوصلتهُ الوحيدةُ إنسانيتُه ووطنيتُه، فكان التلازم بين قناعاته الإنسانية والوطنية، يقول فرانسيس وسركيس ويضيفان: أهم ما يتميز به هذا الرجل المعذب الرقيق الذي يذوب تواضعًا وشفافية، حكمة البسطاء، والتوجس من كل ما له صلة بالتعصب الديني والمذهبي. وهكذا كانت تشير وتهمس كل صفحة من صفحات الكتاب ثم تصرخ بأعلى صوت: الأراضي المقدسة تظل مقدسة ما بقي أهل فلسطين فيها، استمرارهم يثبت صفتها المقدسة... يقول المطران الذي كان مؤمنًا بعروبته إلى مستوى العقيدة: أنعم الله علينا بلاهوت قومي، يتمثل بالرسالتين: المسيحية والمحمدية، ويضيف: نحن مؤتمنون على صيانة هذا اللاهوت القومي.

وحقًا، لا أرى حاجة للتفتيش عن أسانيد هذا الإيمان، باللاهوت القومي، في ثنايا الكتاب على كثرتها، حين تجد تصديقًا للقول بالعمل، إلى حدّ السجن التضحية، عندما كان يرى نفسه وهو السجين، حرًّا بإرادته، ويرى سجانه حبيسًا بوحشيته... وما عذابي بعذاب المسيح رمز المظلومية والشفقة على ظالميه... يهتف المطران.

الورقة الثالثة: لاهوت المطران الثلاثي

كان للمطران الثائر بطبعه وعمق انتمائه للحق وأمته، تطبيق ذاتي أحادي لمبادئ المسيحية والتحرير التي وضعها الكاردينال الفيلسوف، جوزيف راتزينفر، الذي أصبح البابا بنديكتوس السادس عشر، وصدق عليها البابا يوحنا بولس الثاني: بل إن المطران كبوجي مارسها قبل أن يسمع بها أو يطلع عليها، فكان رائدًا بالتجربة العملية، وفي صفحات كتابه كان يعبّر عن قناعاته ومشاعره، وعن فهمه لدوره ورسالته، إنسانيته وقوميته وهويته، فيقيم التواصل بين النظرية والتطبيق لفكر العقيدة المسيحية التحررية الذي صاغه الكاردينال الفيلسوف، ولكن بتلازم متناغم وثيق بين اللاهوت الديني والقومي التحرري، مسكونًا بصرخة الرجل الإفريقي للكاهن الكاميروني وكنيسة الشعوب المناضلة بأميركا اللاتينية.. إنها خلاصة الكتاب.

الورقة الرابعة: أنا والمطران

لا أزعـم علاقة أو معرفـة بالمطران الثائر، شرفٌ لا أدعيه، لكنـي التقيته، ومن قلائل أناس تلقيتهم فلا ينقطع في الوجدان أثر لذاك اللقاء.

حدث ذلك في مطلع الثمانينيات في تونس، التي كان يزورها المطران بعد خروجه من السجن إلى المنفـى، وكنت رئيسًـا لفـرع اتحاد طلبة فلسـطين، الذي يـصر على المشـاركة بالترحيب بالمطران وتحيته، لو برفع يافطة الترحيب والتمجيد أمام الفندق الذي يقيم فيه، يملأ الطلبة شـعور بالزهو والمحبة المختلطة بالرهبة والإجلال لهذا القائد الثائر، رجل الدين الذي تملأ أخباره الدنيا وتشـغل الناس، ترجل وسمع الهتاف، فتجاوز مرافقيه واقترب بقامته وهالته مبتسـمًا، مادًّا كلتا يديه، مباركًا رؤوس الجمع وأكتافهم ثم يقول: من رئيسـكم؟ فقلت أنا، فاقتادني إلى بهو الفندق طالبًا تنظيم لقاء في الغد مع الطلبة بمكتب فتح، وهكذا كان، وعلى غير عادة الطلبة استماع بصمت رهيب وانبهار شديد، انبهارٌ بالخطيب والخطاب.
كان السـؤال وكان الجـواب... أذكرها عظة لخّصـت كل أبواب الكتاب... فسـألت نيافته وصية نصيحة قال: بلى، أجاب: أوصيكم بالمحبة، فإنها سـبيل النجاح واعلموا أن النجاح وقـود الطريـق إلى القدس... أوصيكم بالناس وباللغات واعلموا أن كل إنسـان بلسـان..
رحل المطران وبقيت عظته خالدة.

الورقة الخامسة: كلام في السياسة

إضافة إلى مضمون الكتاب وما أثاره من قضايا سياسية، فإن توقيت إصداره، وإن اقتصرت موضوعاتـه على حقيقـة زمنية مضت، هـذا التوقيت، لا يقل أهمية عـن المحتوى، وخاصة أن موضوعاته تسـتمر تفاعلًا، وموقفًا، وتأثيرًا في البيئة السياسـية الراهنة، ومضاعفاتها أو تداعياتها على قضية الإقليم المركزية، وهي القضية الفلسطينية والصراع العربي – الإسرائيلي المسـتمر منذ مئة عام، وخاصة ما تعلق بالتطورات بالغة الأهمية بشـأن القدس والاعتراف الأميركـي بهـا عاصمة لدولة الاحتـلال، إضافة إلى نقل السـفارة الأميركيـة إليها، في إطار رؤية مستمدة من فكر سياسي أصولي ورؤية سياسية لتحقيق تسوية للصراع بعنوان «صفقة القرن»، وما يتم تسريبه من مضامين لهذه الصفقة أو يتم اتخاذه من مواقف مرتبطة بموضوع القـدس، مثل موضـوع الأونروا واللاجئين الفلسـطينيين، بموضوعـات تتفاعل وتتصدر الحراك السياسي الدولي.

أعتقد أن طرح هذه المحاور الأساسـية يحتاج إلى محاضرات وندوات ونقاشـات طويلة، لا

يمكـن طرحهـا وتناولها بمختلف أبعادها بمثل هذا اللقاء، كـما لا يمكن إهمالها وتجاوزها، ولعـل كتاب «المطـران كبوجي» أكد عديد المواقـف حيال العديد مـن القضايا، مثل مكانة القدس بالنسبة للمسيحيين العرب والدور المسيحي في الدفاع عنها، تأكيد للموقف العربي الإسـلامي – المسيحي الواحد أو المشـترك باعتبارها قضية الكل المقدسة، وكذلك الوطنية القومية الإنسانية العادلة، التي لا يمكن لوعد أو قرار منحاز بصورة عمياء لرواية صهيونية أو حتى لديانة يهودية، فكيف أن تكون منحازة لليمين الصهيوني الاسـتيطاني الاسـتعماري العنصري، أن يحدد مصيرها، بمثل هذه البسـاطة، هذا بالتأكيد نداء للحرب الدينية وليس للسلام، هي دعوة لإثارة فتنة دينية ينبغي التحذير من مخاطرها.

المسـألة أبعد وأعمق من صورة المشهد المركب للوضع في المنطقة والسياسة الدولية وانهيار المنظومة القانونية الدولية، وأثر ذلك على النظام الدولي وعلى القضية الفلسـطينية والإقليم والمتغـيرات المتلاحقة: ولعل سياسـة ترامب خطر على أميركا وعـلى العالم والإقليم أكثر مما هي على القضية الفلسـطينية.. وأخيرًا فإن القيم الإنسـانية، الإنجـازات الحضارية، المبادئ والمواثيـق الدوليـة حقائـق التاريـخ، إنجـازات الحضـارة الإنسـانية، مقومات الشـخصية الدوليـة، السـيادة والكيانـات الوطنية، الكرامـة الوطنية ليسـت أبدًا للبيـع أو المضاربات والصفقات التجارية... العالم ليس بورصة، العرب شركاء بقومية أصلية ورسـالة سـماوية وجغرافيا راسـخة في الركب الحضاري والتاريخي الإنسـاني.. كتـاب المطران قدم إضاءات بالغة الأهمية بهذه المعاني.

الورقة السادسة: المطران والجنوب، فلسطين إلى الآن

من لبنان، من الجنوب اللبناني إلى شـمال الجنوب إلى فلسـطين إلى القدس على خطا المطران، ولعلهـا أيضًا حقيقة لبنان، بل هذا معنى أن تكون لبنانيًا، عربيًا مسـيحيًا وطنيًا قوميًا مؤمنًا متنورًا مدنيًا إنسـانًا، ومعنى أن تكون لبناني الهوية تعني فلسـطين الهوى.... هذا قدر، هذا خيـار، وهـذا اقتـدار عيون تـشرق إلى الجنوب، إلى فلسـطين والجنـوب... حكاية سـوريا والمطران حكاية بلاد الشـام يقول المطران: أنا سـوري وإذا كنت أحب سـوريا فليس لأنها بلادي فحسب، إنما لكونها الجسر الناقل إلى القدس مقاربًا مع نهر الأردن، الجسر والمغطس وضفتين، يجمعهما جسر ونهر شريان واحد للحياة.

ويظـل لبنـان على موعد مع فلسـطين الدولة الآتية، درة الشرق الأوسـط كـما كانت: لبنان يكملها وهي تكمله، لبنان أولها والقدس أوله، هكذا كانت بالفلسـطينيين منذ الفلسـطيني

الفدائـي الأول الفادي المخلص الآتي من بشـارة الناصرة ومهد بيـت لحم إلى قيامة القدس تحمله من اصطفاها الإله على نساء العالمين تدحض أكذوبة أساطير العابرين.

يقول المطران: عندما سـلكت طريق الفداء إنما تبعت الفدائي الأول ابن الناصرة وفلسطين المسـيح، لو خيّرنا بين العالم كله بما عليه ومن فيه في كفة الميزان وفي الكفة الأخرى شـبر من فلسطين فنحن عن العالم وما فيه متنازلون وفي هذا الشبر متمسكون وإليه عائدون.

في مناسـبة أخرى يضيف: أخطر ما يطرح الآن بالنسـبة للقدس هو فصل الأماكن المقدسة عن المدينة وأهلها...

ويقول: لا أستغرب إن طرح علينا ذات يوم نقل الأقصى إلى أبو ديس.

سيدي المطران اليوم يجري ما كان بالحسبان عن القدس والضم عن الاحتلال والاستيطان.. لم تكن نبوءة صفحات كتابك، بل قراءة ثائر لمسـار الاسـتهداف للإنسـان والأوطان بوعد جديـد، وعد ترامب بعـد قرن من وعد بلفور المؤسـس للصراع، وبعنـوان «صفقة القرن» تمعن في امتطاء أسـطورة الخيال منسوبة لرسالة سماوية... تمعن في مصادرة التاريخ ومحاولة امتلاكـه لتفـرض تغيير الحـاضر لامتلاك مسـتقبل وتحقيق سـلام... أي سـلام.. إنه وعد بإشـعال حروب أديان غير أنه سيسـقط، سـتظل القدس عربية تأبى التهويد والأسرلة وإن سـمّاها الوعد لهم عاصمة.. هكذا على امتداد التاريخ كانت وهكذا بقيت، سيسـقط الوعد بلاهوتنـا القومـي ولاهوتك الثـوري الذي ينهض اليـوم في القـدس، وبالأمس صلى أمام أبواب الأقصى فلسـطينيون صلاة الجمعة بالإنجيل أو القرآن مشهد يصدق رؤياك.... فنم قرير العين، سيعود الزمان فكل فلسطيني على خطا الفدائي الأول منذور للفداء، هذا وعد السماء لتكون في الناس المسرة وعلى الأرض السلام.

الورقة السابعة: المجد للمطران

سركيس، فرانسيس شكرًا، وياسيدي المطران،

سلام لروحك، سلام عليك، والمجد لك

يا أسقف القدس، ما أجمل القدس، وما أجملك